

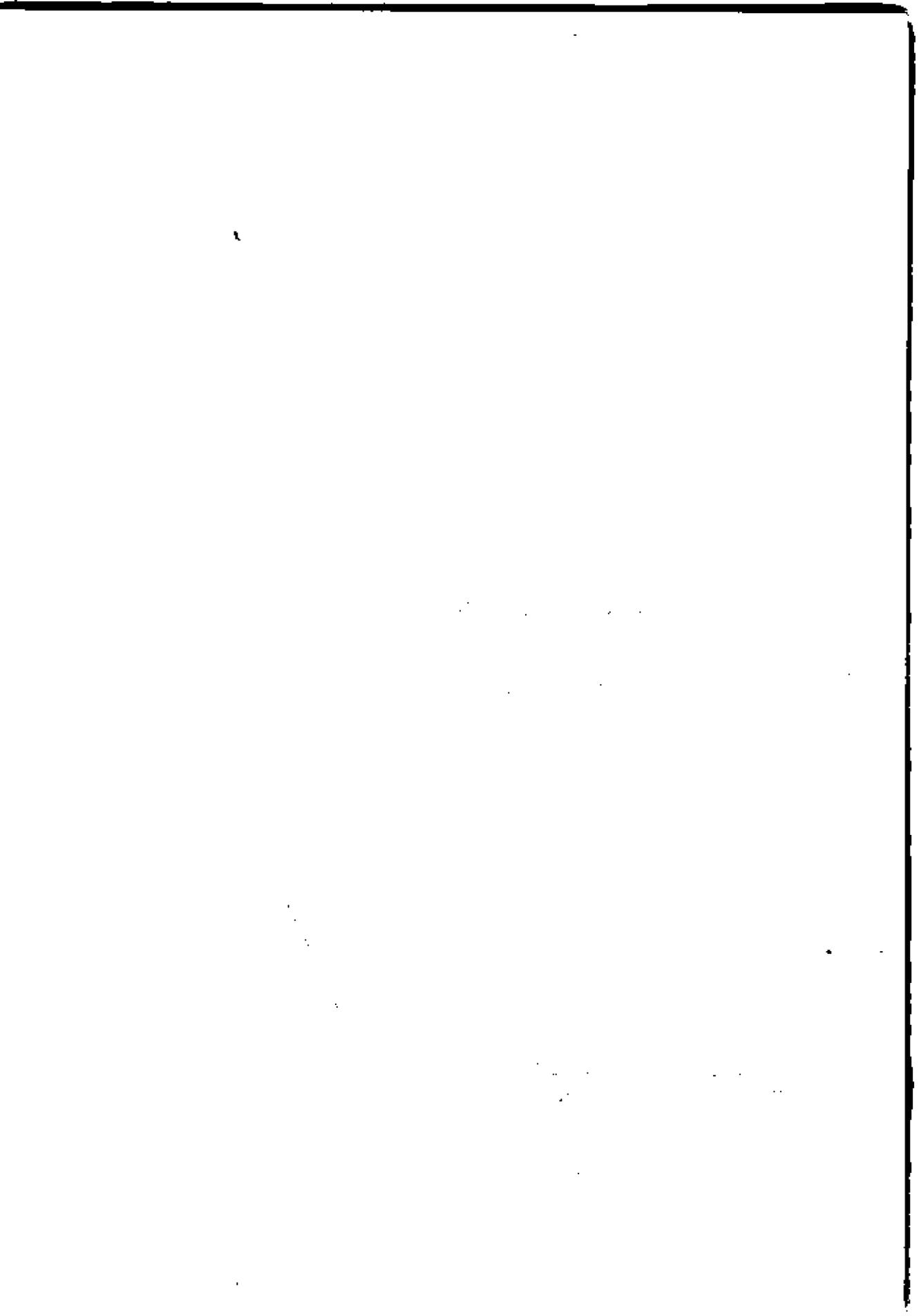
اللغة
العربية
وآدابها

المفارقة في أدب طه حسين

"دراسات في جنة الشوك"

د. نجوى محمود حسين صابو

المدرس بقسم اللغة العربية وآدابها
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



يُعد هذا الفن الأدبي الذي جاء به د. طه حسين "قبيحة للشوك" فثارتنا
جديداً بضاف إلى فنون النثر العربي، لم يعرفه العرب في نثرهم من قبل.^١
ولعل د. طه حسين قد سبق إليه لأنه كان مطلعاً على الآداب الغربية قديماً
وحديثها، واستطاع أن يستعير منها هذا اللون الأدبي الجديد القديم. ولئن كان
العرب القدماء لم يعرفوه نثرًا، لقد كانوا يعرفونه شعراً، عند بشار وحماد
ومطيع، وبعض أصحابهم في البصرة والكوفة.^٢

وهذا الفن هو فن "الإيجراما" وليس له ترجمة عربية شائعة*، وقد أثر طه
حسين أن يذكر المصطلح بحروف عربية، دون أن يضع له مقابلاً عربياً، وقد
اشتق اليونانيون، واللاتينيون هذا الاسم وأخذوه من فن النقش على الأحجار،
حيث كان القدماء ينقشون على قبور الموتى، وفي معابد الآلهة أبياتاً شعرية تعبر
عن أغراض خاصة بهم، ثم بدأ هذا الفن يتطور حتى ابتعد عن الأحجار، وصار
فناً مروياً على الشفاه، ثم لتوثقه الكتب. وإذا كان هذا الفن - الإيجراما - قد بدأ
بالنقش على الأحجار، فقد صار بعد ذلك للفن الذي يطلق على كل شعر قصير،
ثم خصص بالشعر القصير الذي يصور عواطف الحب، أو نزعات المديح أو
الهجاء، ثم غلب عليه الهجاء في نهاية المطاف عند الإسكندرانيين، وشعراء روما،
وإن لم يخلص تماماً من الغزل والمدح، وكان هذا حتى العصر الحديث، حيث لم
يعد الشعراء الأوربيون يطلقون هذا الاسم إلا على الشعر القصير الذي يرمي إلى
النقد والهجاء.^٣

ويتميز هذا الفن بأنه شعر قصير، وهو على درجة عالية من التأنق في
اختيار ألفاظه، فهي ترتفع عن الألفاظ المبتذلة، ولا تسمق فتبلغ اللفظ الرصين

^١ د. طه حسين : جنة الشوك ص ١٥ دار المعارف ط ١٠ .
* وضع له د. مجدي وهبة عدة مقابلات عربية هي : العبارة المنقوشة ، والمقطوع اللاذع ،
والحكمة الساخرة ، والملحة للذكىة ، ولكن واحداً منها لم يعرف مصطلحاً دالاً على هذا
النوع الأدبي بين الباحثين انظر : د. مجدي وهبة : معجم المصطلحات الأدبية لبنان ١٩٧٤ .
^٢ السابق ص ١١، ١٢ .

الذي يقصد إليه الشعراء الفحول في قصائدهم الكبرى، وإنما هو شئ بين هذا وذاك، غير مبتذل كي يفهمه الناس جميعًا فتزهد الخاصة فيه، ولا يرتفع حتى لا يفهمه إلا صفة المتقنين الصفوة الذين يألفون لغة فحول الشعراء.^١

ثم تضاف إلى هاتين الصفتين اللغويتين صفة ثالثة تتصل بالمعنى في "الإبيجراما"، وهي أنه يجب أن يكون المعنى ممثلًا لأثر من آثار العقل والإرادة والقلب جميعًا، ولعل هذا أن يكون مخالفا لما رأته د. نبيلة إبراهيم من استبعاد القلب والعاطفة من المفارقة.^٢ ولعلني أجد أن ما رآه د. طه حسين أقرب إلى الشمول حيث يكون الأثر الفني مزجًا من القلب والإرادة والعقل، وأن يحكم كل هذا نوق واع، فأثر العقل فيه أنه نقد لاذع، أو هجاء موجع، غير خاضع لعاطفة هوجاء أو هوى، وأثر الإرادة فيه أنه لا يأتي عفو الخاطر، وإنما يقصد إليه الشاعر قصداً، ويحتشد لأدائه وتجويده، أما أثر القلب فيه فهو أن يفيض عليه بعضًا من حيويته وحرارته، وأن يخلع عليه قوة ليقبل على الخير، أو لينفر من الشر في حالتي الرضا والسخط. ولكي يتأتى للعمل الأدبي ما يطمح إليه صاحبه، لا بد أن يصح التعاون والالتحام بين كل من القلب والعقل والإرادة والنوق.^٣

ويجدر بالذكر أن المقصود بهذا البحث ليس الحديث عن فن "الإبيجراما" نفسه، بل عن المفارقة فيه - كما جاءت في كتاب د. طه حسين: جنة الشوك - والمفارقة لا شك جزء منه، بل هي ثمرته المرجوة، فغالبًا ما تنتهي

^١ د. طه حسين: جنة الشوك ص ١٢، ١٣.

^٢ د. طه حسين: جنة الشوك ص ١٤.

^٣ د. نبيلة إبراهيم: المفارقة مجلة لصول ص ١٢ المجلد السابع عند ٢٤، ٢٤ إبريل - سبتمبر ١٩٨٧.

^٤ د. طه حسين: جنة الشوك ص ١٤، وانظر د. عز الدين إسماعيل: دعة للأسى ودعة للفرح ص ١٢.

"الإيجراما" بنوع من المفارقة irony* ، والمفارقة ظاهرة لبيبة تعتمد على لعبة لغوية ماهرة بين طرفين صانعا وقارنها ، فصانع المفارقة يقدم للقارئ نصا لا يقصد به المعنى الذي يدل عليه ظاهر لفظه ، بل معنى آخر يغلب عليه أن يكون ضداً له ، معتمداً على أن القارئ سوف يظن إلى المعنى المراد دون أن يخدعه الظاهر .

لئن فالمفارقة تعد لغة "اتصال سري" بين الكاتب والقارئ ، وقد تكون في جملة واحدة ، وقد تشمل النص كله.^١

وترى د. نبيلة إبراهيم "أن ليس كافياً أن نعرف المفارقة بأنها الكلام الذي يقول شيئاً ويعني غيره - بل هي رفض للمعنى الحرفي للكلام لصالح المعنى الآخر ، أو بالأحرى المعنى الضد الذي لم يعبر عنه."^٢

ولعلها أن تكون كذلك تعبيراً لغوياً بلاغياً يركز على العلاقة الذهنية بين الألفاظ ، أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية ، وهي أيضاً وسيلة أسلوبية فعالة للتهكم والاستهزاء.^٣

فالمفارقة إذن صيغة من صيغ التعبير ، تتعرض في المخاطب فطنة الاستماع: أي أن على المخاطب أن يدرك أن في الكلام معنى كامناً فيه ، وأن يدرك أيضاً أن هذا الكلام المنطوق - لا يمكن فهمه على المستوى السطحي في

* وقد اشتقت من اليونانية (eironeia) بمعنى التظاهر بالجهل ، وفي ترجمتها للإنجليزية بعد ذلك صارت تعني هذا الأسلوب الذي يتعارض فيه المقصد الحقيقي لصانع المفارقة مع المعنى الحرفي الذي يقمه في الظاهر .

انظر: Academic American Encyclopedia ١١/٢٧٩

^١ انظر: د. نبيلة إبراهيم: المفارقة ص ١٣٢-١٣٥ ، وانظر د. مصطفى السعدني: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث ص ٢١٣ منشأة المعارف - الإسكندرية.

^٢ انظر: د. نبيلة إبراهيم: المفارقة ، مجلة فصول ص ١٣٢.

^٣ السابق ص ١٣٢ ، وانظر: د. محمد العبد: المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ط ١ دلو الفكر العربي ١٩٧٤ ص ١٧، ١٥ ، د. سيزا قاسم: المفارقة في النص العربي المعاصر مجلة فصول م ٢ ١٩٨٢ ص ١٤٤ .

ظل هذا السياق المصاحب للنص^١.

وقد تشابكت "المفارقة" مع بعض المصطلحات المجازية البلاغية، مثل المجاز والكناية والاستعارة، ولكن هناك فرقاً جوهرياً يفصل بين المفارقة وغيرها من المصطلحات البلاغية يتمثل في: أن صانع المجاز والاستعارة والكناية يقصد إلى شيء أكثر مما تحمله كلماته، أي يقصد إلى المبالغة في المعنى، في حين أن صانع المفارقة يقصد غالباً إلى تقيض ما تحمله كلماته من معنى^٢.

والمفارقة ترتبط أيضاً بكثير من أشكال التعبير الفني، فهي خليط من فن الهجاء، وفن السخرية، وفن "الجر وتيسك" أي الفريب الموهوش المضحك^٣.

وحين يدخل فن من هذه الفنون إلى المفارقة يبتعد عن استقلاليته ليؤدي مع غيره من عناصر المفارقة دوراً جديداً^٤.

ولعل أهم وظائف المفارقة السخرية والتهكم للوصول إلى نقد أخلاقي أو تهيبي، أو لتقويم قيم اجتماعية سائدة^٥.

ويظل السؤال قائماً: لماذا يلجأ الكاتب أو الشاعر إلى المفارقة لتحديث عما يريد من أفكار وموضوعات؟ والجواب: أنه قد يعتمد إلى المفارقة لأنها توفر نوعاً من التأثير بعيداً عن الوعظ الفج، والإرشاد الممجوج، وكذلك فهي تثير عقل القارئ وخياله معاً. إنها تُعد وجهة نظر إلى الحياة تفتح على تفسيرات عدة، لا يعتبر أي منها صحيحاً على إطلاقه، وهي ترى في تجاوز المتناقضات جزءاً من بنية الوجود^٦.

"كذلك فإن الدافع الفني والجمالي هو الذي يمارس الدور الأكبر من ضغوط صنع المفارقة، فكل ممنوع عند القارئ مرغوب، والأبعد هو الأجل،

^١ راجع د. محمد العبد ص ١٥-١٧.

^٢ السابق ص ٢٩، ٣٠، وانظر د. ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث ص ٣٠ ط ٢٠٠٢ بيروت.

^٣ انظر: د. نبيلة إبراهيم: المفارقة ص ١٣٢.

^٤ انظر: د. نبيلة إبراهيم: المفارقة ص ١٣٢.

^٥ د. محمد العبد: المفارقة في النص القرآني ص ١٦٦، ص ١٨.

^٦ انظر: أحمد خريس: المفارقة في مقاسمات بديع الزمان ص ٢٥٨، مجلة جذور سبتمبر ٢٠٠٢ ج ١٠ م ٦، د. محمد العبد: المفارقة في النص القرآني ص ٣٥.

والغامض هو ما يسعى القارئ إلى اكتشافه ، ومن هنا يعمل القارئ معوله في جدار البنية اللغوية بحثًا عن كنز المعنى ، ولاشك في أن فرحته لا توصف حينما يعثر على المعنى المفقود^١

وقد يعتمد المبدع أيضًا إليها عندما يشتد الطغيان ، ويفرض على أصحاب الفكر إرهابًا فكريًا يراد به إسكات الألسنة ، وهنا لا يجد هؤلاء إلا طرقًا غير مباشرة أهمها المفارقة للتعبير عن آرائهم الحرة دون خشية، متخفين من أدواتهم الفنية، والعوامل الاجتماعية والسياسية والتاريخية معيّنًا ينهلون منه ليوصلوا إلى الناس ما يريدون للتعبير عنه.^٢

ويتحدث د. طه حسين عن ذلك العصر الذي عاش فيه، وكتب فيه كتابه قائلًا: "ولعل عصرنا الحالي أحوج ما يكون لمثل هذا للكلام عن أي وقت خلا - فهو عصر انتقال - ، وعصور الانتقال تمتاز بما يكثر فيها من اضطراب الرأي واختلاط الأمر، وانحراف السيرة الفردية والاجتماعية عن المألوف من مبادئ الحياة. وهذا كله يدفع إلى النقد، ويحمل على العناية بإصلاح الفاسد، وتقويم المعوج، والدلالة على الخير ليقتصد إليه، وعلى الشر لتنتكب سبيله، وإظهار ما يحسن، وما لا يحسن في صور قوية أخادة الأثر في النفوس، شديدة الاستهواء للذوق، عظيمة الحظ من ملاءمة للطبع."^٣

إنّ فالمفارقة قادرة على تحقيق هذا الأمر، بما لديها من قدرة على النقد في سرعة وخفة، وبنّاء وإيجاز، مع جودة في الصياغة. ومن ثم فسيجد القارئ ما يبحث عنه ممتزجًا بشعور من لذة العقل والقلب والذوق واللسان جميعًا.^٤

^١ د. ناصر شبانة : المفارقة في الشعر العربي الحديث ص ٧٣.

^٢ د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ط ٢٠٠١ القاهرة ص ٦٦

^٣ جنة الشوك ص ٧

^٤ جنة الشوك ص ٨

عناصر المفارقة:

تتعدد المفارقة بأربعة عناصر^١ أو خمسة كما يعدها بعض الباحثين^٢.

العنصر الأول:

لا بد أن تشتمل المفارقة على مستويين للمعنى، معنى ظاهري يدل عليه ظاهر اللفظ، ومعنى آخر مستتر خلف هذا المستوى السطحي، وهو المقصود، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بالسياق العام للنص سواء أكان سياقًا لغويًا أم اجتماعيًا، أم تاريخيًا. بل لعل السياق أن يكون أهم ما يعول عليه في تجاوز المعنى الحرفي المباشر إلى المعنى الضمني في أسلوب المفارقة. ولا بد أن يدرك القارئ ازدواجية المعنى وأنه منوط به الوصول إلى حقيقة مراد صانع المفارقة، تساعده في الوصول إليها المؤشرات المصاحبة للمفارقة، والتي من شأنها أن توجه انتباهه نحو التفسير السليم.^٣

العنصر الثاني:

خاص بإداء صانع المفارقة لها، إذ عليه أن يظهر أسلوبه بريئًا، وأن يتظاهر، وهو يقدم المفارقة، بالساذجة، ويتم له ذلك عن طريقتين:
أولهما: المراوغة، من خلال استخدامه الحيل اللغوية حتى يصبح صانع المفارقة كأنه ذات لغوية، وذلك بتحريك اللغة ليثبت بها حقيقة ثم لا يثبت أن يلغها. ^٤واللغة في المفارقة ذات طبيعة خاصة تتميز بأنها لغة منعزلة لا تعتمد إلى الإقحام بصورة مباشرة، وتظل حائمة حول إشكاليات اجتماعية وفكرية على

^١ د. نبيلة إبراهيم: المفارقة ص ١٣٣.

^٢ د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٣٨.

^٣ د. نبيلة إبراهيم: المفارقة: ص ١٣٣، د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٣٨، ٣٩، د. محمد العبد: المفارقة في النص القرآني ص ٣٩ وانظر: د. سيزا قاسم: المفارقة في النص العربي المعاصر ص ١٤٤، ١٤٣.

^٤ د. نبيلة إبراهيم: المفارقة: ص ١٣٩، د. سعيد شوقي: بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٥٦.

مستوى المحدود واللا محدود ، ولا يحاول صانع المفارقة أن يحطها.^١
وثانيهما: "المغاظة" وهو أن يعتمد صانع المفارقة أن يضفي على شخص
مفارقه صفة الغفلة عن إدراك الحقائق.^٢

ويرى بعض الباحثين أن على صانع المفارقة عدم التحيز لفكرة ما أو
لموضوع ما، حتى يكون قادرًا على أن يناور فيحدث المفارقة.^٣
ولست أرى هذا الرأي، بل أعتقد أن المفارقة تتم بناءً على وجهة نظر في
الحياة، وأن صانعها لا بد أن يكون مقتنعًا بمبدأ يدفعه إلى رفض واقع ما ابتغاء
تغييره .

على أن كاتب المفارقة لا بد أن يكون فطنًا ذكيًا، مبتكرًا سريع البديهة، وأن
يكون صاحب قدرة على التعبير بأسلوب بليغ عن معان قد تبدو للوهلة الأولى
مبعثرة غير متناسقة، وغير مألوفة للعقل. وتحقق المفارقة على يد فنان يجري في
دمه الإحساس العميق بالخدعة الكبرى في الحياة.^٤

وهذا الكاتب يجب أن يكون - كما ذكرت د. نبيلة إبراهيم - ذاتًا ترانسندنتالية،
وذا وعي "ترانسندنتاليا" - أي متساميًا متأملًا - Transcendental وليس
تجريبيًا، أي أن يمتلك القدرة على أن يتأمل كل شئ خارج نطاق التجربة
والخبرة، ولكن ليس خارج نطاق المعرفة البشرية، بمعنى آخر: هي الذات
القادرة على رؤية المفارقة القائمة حولها في موقف من المواقف، لو أمر من
الأمر.^٥

^١ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٨٠

^٢ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٥٧

^٣ السابق ص ٦٦، وانظر : R.wellek: A history of Modern criticism V. ٢, P. ١٢-٢٤

^٤ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٦٦ ، وانظر د. نبيلة إبراهيم :
المفارقة ص ١٣٥، ١٣٦

^٥ انظر : د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٦٤، ٦٣، ود. نبيلة إبراهيم :
المفارقة ١٣٤

العنصر الثالث :

لا بد من وجود "ضحية" ماثلة كي تتم المفارقة، وقد تكون الضحية متمثلة في "أنا" الذات المبدعة، أو في "أنت" أو في آخر، إنها ضحية متهمة وبرينة، ولعلها تدعي لنفسها أشياء مبالغاً فيها، ولعلها أن تكون دائماً عرضة للهجوم، ولعلها تتطوي على المضحك والمُبكي معاً، ومن ثم فهي تدفع القارئ إلى بسمة خفيفة سرعان ما تتلاشى.^١

ولا بد أن تكون هناك أساليب واضحة للتأثير على الضحية لعل من أهمها السخرية والهجاء والمبالغة. وهنا يحسن بنا أن نشير إلى أن الفارق الأساسي بين هذه الفنون من القول في حالتها للصرف، وحالتها عند استخدامها في المفارقة، أنها لا تشترط في حالتها الصرف إقامة التضاد عنصراً جوهرياً، إذ يمكن أن تقوم بغيره، أما المفارقة فتشترط هذا. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى "فإن بناء هذه الفنون الصرف يؤدي المعنى الحقيقي مباشرة بشكل لا يقل التردد... على حين أنه في حالة إعادة إنتاجه في المفارقة فإنه يؤدي دوره بحيث تحس بقوة للمعنى الظاهر والخفي معاً."^٢

كذلك فإن بناء هذه الفنون الصرف يكون يتصد إلى شن هجوم متعمد على شخص ما، أو أمر، بغرض سلبه كل أسلحته، وتعريته من كل ما يتخفى فيه ويتحصن وراءه، أو لإخضاع الخصم من أجل إراحة النفس المتعبة، في حين أنه في حالة المفارقة لا يقصد إلى تعرية الشخص المهاجم من ادعائه وأسلحته... وإنما يظل صانع المفارقة شريكاً للضحية في محنتها.^٣

العنصر الرابع :

يتمثل في حتمية وجود تعارض، أو تناقض في معطيات النص، وأن ثمة

^١ د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٣٣.

^٢ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٧٨.

^٣ د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٣٧-١٣٩.

تضادًا، أو تناقضًا يُستشعر بين المستوى الظاهري والمستوى الباطني للكلام،
وأنه يجب حل هذا التعارض.^١

العنصر الخامس :

ويتمثل في القارئ المنوط به إدراك المفارقة، وضرورة وجوده كي تتم
للمفارقة أركانها، إنه يمثل روح المفارقة^٢، ونلاحظ أن بعض الباحثين لم يشترط
وجود القارئ بوصفه عنصرًا رئيسًا لفهم المفارقة واكتمال عناصرها، وإن نصوا
على أهميته^٣، ولعلي لنتق مع الرأي القائل بأن المفارقة تكتمل بعناصرها
الأربعة، وإن المفارقة تقوم، حتى تجد القارئ الواعي القادر على
اكتشافها، وهو الوجه الأخر لصانعها، فإن وُجد واستطاع أن يحل شفرة
المفارقة^٤، ويقف على معناها الحقيقي ومفزاها، فقد اكتمل لها وله النجاح من
القطار.

أنواع المفارقة:

للمفارقة أنواع كثيرة*، أهمها :

المفارقة البنائية : Structural irony

وهي تتمثل في التضاد الحاد النابع من موقفين متضادين نابعين من إطارين
اجتماعيين مختلفين.^٥

^١ السابق ص ١٢٢.

^٢ د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ص ٢٩.

^٣ د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٤٠، وانظر د. محمد العبد : المفارقة في النص القرآني ص
٢٢، ٢٣.

^٤ انظر : د. نبيلة إبراهيم : المفارقة ص ١٤٠ وانظر : د. سيزا قاسم : المفارقة في النص
العربي المعاصر ص ١٤٤.

*Cuddon, J.A: Dictionary of Literary Terms and Literary Theory.
Penguin Books. England 1991.

Gray, M.: A Dictionary of Literary Terms. Long man 1992

^٥ أحمد خريس : المفارقة في مقامات بديع الزمان ص ٣٦٢.

المفارقة اللفظية : Verbal irony

وهي تقوم على اللعب باللفظ فيقدم النّم بصيغة المدح مثلاً ، أو العكس . وكذلك يكثر في هذا النمط للمحسنات البيعية المعنوية واللفظية، مثل الطباق والمقابلة والجناس والتورية.^١ ولعله من الملاحظ في هذه المفارقة أن ما يؤكد المتكلم - صانع المفارقة - في ظاهر نصه يختلف عن المعنى الضمني الذي يعنيه بالفعل.^٢ بل لعل كلامه يحمل عنصراً لغوياً أو بلاغياً يؤدي إلى عكس المعنى ، ويتمثل هذا العنصر في المغايرة.^٣

المفارقة الدرامية : Dramatic irony

ويجب أن يتوفر فيها شروط ثلاثة :

- ١ - أن يتوتر فيها السرد بسبب غفلة بعض أشخاص المفارقة ، واستفحال بعضهم لبعض.
- ٢ - يجب ألا يعرف أحد الأشخاص على الأقل ما ينتظره من مصير بشكل محدد دقيق.
- ٣ - أن يكون جمهور القراء على علم بالوضع الحقيقي ، ويعجز الشخصية عن تقويم الخطأ ، وتصحيحه بشكل سليم.^٤

مفارقة الإلماع : Hint

وتقوم على ملحظ سريع أو نظرة، أو إيحاء تلميحية تجاه شخص يقصد النيل منه، أو تحقيره، والخط من شأنه. فإذا قلنا: "إنه كان ذكياً في الأيام الأخيرة" فهذا الكلام يدل على أن غباه هو المألوف الدائم، وأن ذكائه عابر، وافترض المتكلم أن غباه هو القاعدة أدخل الكلام في تضاد مع الافتراض العادي. ومما ساعد على تثبيت معنى المتكلم، وإزالة قناع المفارقة قوله: (فقط) أي أنه لم يكن قبل ذكياً، بل ظهرت عليه أعراض الذكاء في الآونة الأخيرة، بمعنى أنه كان غيباً أغلب الوقت.^١

^١ أحمد خريس : المفارقة في مقامات بديع الزمان ص ٣٦٢.

^٢ د. محمد العيد : المفارقة القرآنية ص ٧١، وانظر د. ناصر شبانة : المفارقة في الشعر العربي الحديث ص ٤٧.

^٣ د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر ص ١٤٤.

^٤ أحمد خريس : المفارقة في مقامات بديع الزمان ص ٣٦٢.

مفارقة المفهوم أو التصور : Conception

ويقوم للتضاد في هذه المفارقة على أساس التعارض بين موقف الضحية (المتصور) وسلوكها ومفهومها للأشياء، وهو سلوك خاطئ يثير الانتقاد، وبين ما يجب أن يكون عليه من صحة، وكلما ابتعد الدافع الظاهري المحرك لموقف الضحية وسلوكها عن حقيقة الأمر، اشتد التعارض وحمى وطيس المفارقة.^١

مفارقة الإيهام :

وتقوم على معنيين أحدهما قريب يوهم أنه المراد ، والآخر بعيد يراد ، تنفي به المفارقة هذا الإيهام وتثبت نقيضه.^٢

روافد المفارقة عند د. طه حسين

تتمثل روافد المفارقة عند طه حسين في ثلاثة روافد :

١ - ثقافة عربية صرفة مكنته من امتلاك ناصية اللغة العربية، وإحاطة واعية بتراثها الشعري والنثري ، فقد شب طه حسين على حب الشعر القديم، وبغض الشعر المحدث^٣ ، وقد ظهر هذا جلياً وواضحاً في قدرته القادرة على الأداء اللغوي السلس العذب للذي يحفظ على اللغة صحتها وجمالها فيما أورده من "إيجرامات" بلغت مائة وخمسين ، وقد ظهر فيها استثماره للتراث العربي القديم شعره ونثره ، في صياغة مفارقاته وإسقاطها على قضايا المجتمع المعاصر.

وقد تعددت جوانب الأداء اللغوي عند طه حسين، وقد ظهر هذا جلياً في مفارقاته فيما سنرى بعد، وقد ظهر أن اهتمامه باللغة لم يصدر عن تصور نظري

^١ د. محمد العبد : المفارقة في النص القرآني ص ٥٢

^٢ د. محمد العبد : المفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ص ١٦٥

^٣ السابق ص ١١١

^٤ محمود علي مكي: عصور الأدب العربي ص ١٢٧ مجلة "تكرار" العدد ١٤ مارس ١٩٨٩
(د. طه حسين: مائة عام من النهوض العربي) (في الذكرى المئوية لمولده).

منطقي لبنية اللغوية، بل صدر عن نظرة وظيفية اجتماعية^١.

٢ - الثقافة الأوربية: ولعل من أبرز ملامح تأثيرها وقرؤنه على فن "الإبيجراما" اليوناني النشأة، وإدراكه تطور هذا الفن، ثم قدرته البارعة على نقله إلى اللغة العربية لجعله وسيلة من وسائل نقده الاجتماعي والسياسي للمجتمع المصري. وكان طه حسين قد درس اليونانية واللاتينية، والتاريخ اليوناني والروماني عندما أوفنته الجامعة طالبًا مبعوثًا إلى فرنسا بين سنتي ١٩١٥-١٩١٩. وقد انعكست هذه الثقافة بوضوح في كثير من مفارقاته حيث أورد أسماء بعض الشعراء الفرنسيين واللاتينيين مثل مارسيل، وكليماك وجوفينيال، وذكر آراءهم معتنيًا بهذا كله في مفارقاته الساخرة.

٣ - المجتمع المصري والبيئة الواقعية: لا شك أن جُلَّ الأفكار التي طرحها د. طه حسين والمفاهيم التي أراد انتقادها في مفارقاته لم يأت بها من بعيد، ولكنه استقاها من واقع الذي يحياه في مجتمعه المصري بشتى اتجاهاته ومناحيه. ويتحدث عن هذا الرافد فيقول: "ومن المحقق أنني لم أخترع هذا الكلام من لا شيء، ولم أشتق هذه الصور من الهواء، ولم التمسها في الصين، ولا في اليابان، ولا في بلاد الهند والسند، وإنما أنا أعيش في مصر، وأشارك المصريين في الحياة التي يحيونها، وأخذ بحظي مما في هذه الحياة مما يرضي ويسخط"^٢.

هذه الروافد الثلاثة لتصهرت إذن في فكر د. طه حسين لتكوّن هذه الخبرات الواسعة التي أمدته بمعين لا ينضب استقى منه قدرته على إحداث المفارقة وصناعتها، وقد أضيفت إليها أسفاره المتعددة وخبرته بالحياة والناس من حوله، ومن سبقوه إلى الحياة. يقول طه حسين في ذلك: "وأنا بعد ذلك أعرف أقطارًا من الأرض سافرت إليها وأقمت فيها أو قرأت عنها في الكتب والأسفار، وأنا بعد

^١ د. محمود فهمي حجازي: مقال: "تكره اللغوي مجلة" الفكر" ص ٥٦ العدد ١٤.

^٢ د. محمد شكري عياد: طه حسين والثقافة اليونانية ص ١٠٢ مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٦٦.

^٣ د. طه حسين: جنة الشوك ص ١٧.

هذا وذلك أعرف أجيالا من الناس عشت بينهم، أو قرأت أخبارهم، وعرفت آثارهم فيما استطعت أن أظهر عليه من آثار الناس في الشرق والغرب... وأنا واثق كل الثقة بأن كثيرا من أبناء الزمان قد مروا في هذه الدنيا، وليس عندي من أبنائهم طرف طويل أو قصير، ولكني واثق بأنني عرفت للناس، وبلوت أخبارهم وأثارهم إلى حد ما، وتأثرت بما بلوت من ذلك، فسخطت حيناً ورضيت أحيانا، وأظهرت ما وجدت من السخط والرضا في صراحة واضحة تعينني من التلميح الغامض.^١

وبعد: قللي قبل أن أبدأ الجانب التطبيقي من البحث في مفارقات طه حسين في "جنة الشوك"، أقف لحظة عند عنوان الكتاب، لأسجل في عنوانه أول مفارقة عمد إليها الرجل، ولعلها أن تكون مفارقة لفظية يرمي فيها ظاهر اللفظ إلى غير حقيقته. فثمة تقاض شامع بين الجنة والشوك، وأنى يكون للشوك جنة، إنها مفارقة تبعث على السخرية والتأمل. هذه من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد وفق طه حسين إلى اختيار هذا العنوان ليبدل به على محتوى كتابه لما يحمله من أحاديث شانكة ومفزعة، بل مثيرة للألم وباعثة على التهكم والسخرية المرة وكلها مسوقة في قالب أنيق من لغة عنبة.

ولعل طه حسين كان أقرب إلى إيهام قرانه لطبيعة ما جاء به في كتابه حين قال: "المقطوعة منه أشبه شيء بالنصل المرهف ذي الطرف الضئيل الحاد، قد ركب في سهم رشيق خفيف لا يكاد ينزع عن القوس حتى يبلغ الرمية ثم ينفذ منها في خفة وسرعة ورشاقة لا تكاد تحس."^٢ وقد اختار طه حسين أن تقوم أغلب إبيجراماته على حوار بين الأستاذ الشيخ وتلميذه الفتى لتتيح له حكمة الشيوخ وحماسة الشباب، وتطلعهم إلى المعرفة ألوانا من المفارقات حفلت بها هذه الإبيجرامات.

^١ د. طه حسين: جنة الشوك ص ١٧، ١٨.
^٢ السابق ص ١٥.

وبنا الآن أن ننظر في مفارقات طه حسين ونتعرف أنواعها وخصائصها،
ومجالاتها، ونحاول أن نستجلي أهم دوافعها ومقاصدها.^١
أولاً: مفارقة التصور:

وقد ظهرت في موضوعات متعددة أغلبها قد غني بالمعاني الأخلاقية
والسلوكية:

ومنها ما أطلق عليه طه حسين عنوان "سيرة" يقول فيها:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما خير سيرة يسيرها الرجل الحازم في أبنائه؟
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: يكلوهم بعنايته، ويشملهم برعايته، ويحوظهم
بعطفه وحنانه، ولا ينتظر منهم بعد ذلك إلا عتوقاً. ذلك أجدد أن يسروه أحياناً ولا
يسوعوه أبداً.^١

المفارقة في العتوق الذي لا يتوقع حدوثه. وتملاً المفارقة السخرية والمرارة
من سلوك الأبناء تجاه الآباء الذي يكشف عن خلل اجتماعي خطير إذ كيف يكون
العتوق في مقابل الرعاية والحنان؟ وكيف ينتظر الأب المسرة لحياتنا، وكان
حرياً به أن يلقاها منهم دائماً!! لكنه على كل حال إذا توقع منهم ذلك يسروه أحياناً
ولم يسوعوه أبداً.

ويبدو تصور المعنى القائم في المفارقة واضحاً بجملاء: رعاية من الأب
وعتوق من الأبناء، ويظهر كذلك التعارض بين موقف الضحية (الأبناء)
المتصور وهو (رد الجميل) وبين سلوكهم الفعلي الخاطئ الذي يثير الانتقاد
(العتوق). وكذلك تظهر في هذه المفارقة المقابلة الواضحة بين فعلين متناقضين،
فعل الأب، وفعل الأبناء، وهذا كله من صميم جوهر مفارقة التصور.

ومنها أيضاً ما ورد تحت العنوان: "ملق" ويقول فيها:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما بال قوم من العلماء يتحسون من رأي

^١ د. طه حسين: جنة الشوك ص ١٢١، ١٢٢.

الحكام في العلم، وليتخوه لأنفسهم رأياً.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : يريدون ألا يستأثر الناس من دونهم بـرضا

الحكام.^١

المفارقة هنا معقودة على أن العلماء يتلمسون رأي الحكام في العلم، أي أن أهل الاختصاص يأخذون ممن ليسوا مختصين رأياً وعلماً، وذلك بسبب النفع الزائل! وكان حرياً بالحكام أن يتلمسوا رأي العلماء، وليس العكس. ويظهر في هذه المفارقة الاستفهام التعجبي، وهو أحد الوسائل في مفارقة التصور.

ومنها ما لطلق عليه طه حسين "وقار" :

قال الطالب للفتى لأستاذه الشيخ : أتري إلى وقار فلان حين يسعى ؟ إن

الناس ليعجبون بما يصطنع من الأتاة والمهل.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو استطاع أن يسعى وهو واقف ، وأن

يتحرك وهو ساكن لفعل.

قال الطالب للفتى لأستاذه الشيخ: ليته يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من

الوقار!^٢

تبدو المفارقة في قوله : "ليتّه يأخذ نفسه بمثل ما يأخذ به جسمه من الوقار"

استخدام نقطة ليته دلت على ما لم يعلنه ظاهر اللفظ من أن هذا الوقار ظاهري مصطنع، وأنه لا يمس جوهر شخصيته "الضحية" فالمفارقة في كون فلان هذا مهتماً باصطناع شيء في غيبة ما هو أهم، أعني اتزان النفس والأخلاق والسلوك، وهذا ما يعرى منه.

ويظهر التعارض واضحاً بين فعل الضحية "قلان" وسلوكها الظاهر، وبين

موقفها النفسي المختلف تماماً عما تعلنه. ولعلك لاحظت أن طه حسين لم يجعل

حكمة الشيوخ مصدر المفارقة دائماً، بل جعل للشباب حظاً منها.

^١ السابق ص ٩٤.

^٢ د. طه حسين : جنة الشوك ص ٢٩.

ومنها أيضًا ما عنوانه : "إخاء" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إن الشاعر يختارنا بين الوحدة واحتمال

الإخوان على علاتهم حين يقول :

فعض واحدًا أوصل لأخاك فإنه

مقارف ذنب مرةً ومجانبه

فأي الأمرين تحب لي أن أختار؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إن الشاعر لم يخيرك، وإنما ألزمك الخصلة

الثانية، فانت لا تستطيع أن تتسل من الحياة الاجتماعية، كما لم يستطع أبو العلاء

أن يتسل منها. فاحتمل الحياة الاجتماعية كلها، واصبر لما فيها من المحن.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : وترى إخاء الإخوان محنة؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : أي محنة !

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : كيف ذاك ؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إذا وفي لك الإخوان امتحنت في وفائهم،

وفرضت عليك المروءة ألا تقتل ولا تبطر، ولا تستغل الوفاء فتشق عليهم بما لا

يطيقون. وإن تنكر لك الإخوان امتحنت في تكرهم، وفرضت عليك المروءة ألا

تقسو ولا تنظلم، ولا تتجنى ولا تنتظر منهم فوق ما يطيقون. وأنت ممحن بعد

ذلك في نفسك، تفرض عليك المروءة أن تقي لهم إذا وقوا، وتصفو لهم إذا

صفوا، وتعرفهم حين ينكرونك وتتصحبهم حين يخشونك، وتبزه حين يخذرونك،

وتعطيهم أكثر مما يعطونك، وتسير من إخوانهم على مثل الشوك. صدقني! إن

إخاء الإخوان محنة لا يثبت لها إلا ألو العزم.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فإني أوتر الوحدة.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : هيهات ! تلك أمنية تتبغى ولا يمكن

ظاهر أن طه حسين هنا اعتمد على الشعر العربي القديم في نسج مفارقاته،

والمفارقة تظهر في تصور موقفين متعارضين يرتكزان على التجني والتسامح. وتبدو المفارقة في: لنُ على الرجل أن يصل إخوانه وقد أنكروه، وإنْ عليه أن ينصحهم وقد عشوه، وكذلك أن يبرهم وقد غدروه، وجُماع المفارقة تتركز في لنُ من يسيرُ في درب الإخاء كمن يسيرُ على الشوك. والأصل فيه عكس ذلك.

المفارقة في أن الإخاء محنة ، وهذا ما يفجأ ذهن القارئ ، لأن الأصل في الأسماء يختلف عن هذا ولعلني أشير إلى أن صانع المفارقة قد قصد إلى تقديم المفارقة بشكل واضح سهل على القارئ فهمه والتقاطه، ولم يترك له فرصة كبيرة لإعمال عقله ليدرك من المعنى باطنًا وعمد صانع المفارقة إلى إخفائه . وفي النهاية يترك القارئ ممرورًا متعجبًا وساحرًا.

وهذه المفارقة تمثل الإخبار عن التصور إخبارًا صريحًا ، وكذلك تمثل المقابلة المباشرة بين فعلين متناقضين ، فعل الإخراخ وقولهم ، وفعل الرجل للصديق وقوله.

ومنها أيضًا : "جمود" :

وتتميز هذه المفارقة بأن اعتمد فيها د. طه حسين على شعر لشاعر لاتيني، واستشهد فيها، ليدعم فكره ورايه، بنص قرآني.

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ: إني أقرأ في شعر كاتول اللاتيني: "لا تعمل خيرًا ولا تنتظر شكرًا، فقد عم الجحود وأصبح الإحسان هباء! ماذا أقول؟ بل أصبح ثقلًا ومصدرًا للضغينة. لقد بلوت هذه التجربة المرة حين رأيت أشد الناس حقدًا علىّ وبغضًا لي مَنْ كان يراني منذ حين مصدر نعمته وحاميه الوحيد."

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : لم تتغير أخلاق الناس منذ قال شاعرك اللاتيني هذا الشعر، ولكنه صاحبٌ عاجلة لم ينتظر من الأجلة شيئًا. أما نحن فقد لدينا الله أدبًا آخر، وأقرأ إن شئت قوله عز وجل: "مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا"

يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره"^١

يتضح من هذه المفارقة الهدف الأخلاقي التهذيبي المبني على فهم للعقيدة الإسلامية التي تعاقب من يعمل شراً ، وتثيب من يعمل خيراً. المفارقة معقودة على أن من كان يدين له بالنعم يصبح حاقداً له مبعضاً، والمتوقع أن يكون حامداً له شاكراً.

وتتضح "مفارقة التصور" في تصورين لمعنيين مجردين، أولهما: ما عليه أخلاق الناس من شر وإساءة ونكران للجميل، والتصور الآخر لواحد من أصول الشريعة الإسلامية المبني على مكافأة الإحسان بالإحسان، وجزاء الإساءة بمثلها. وبالطبع تبنى المفارقة على إظهار التعارض بين موقف للضحية - من لحسن إليه ووجد - وسلوكها الخاطي مثار الانتقاد، وما كان ينبغي أن تكون عليه.

ومنها أيضاً مفارقة تحت عنوان: "انتصار" وقد بنيت على بيت من الشعر: قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما الذي يعجب الناس من قول المتنبى:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرض طلب الطمن وحده والنزالا

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي : يعجبهم منه يا بني أنه يعرض صورة رائعة في دقتها وصدقها وإيجازها لحقيقة إنسانية خالدة ، وهي أن شجاعة كثير من الشجعان، وانتصار كثير من المنتصرين ، وتفوق كثير من المتفوقين ليست إلا تكثراً وغروراً . فإذا جاء الخوف قل الشجاع وتدر الانتصار، وأصبح التفوق لمنية لا تقال إلا في عسر شديد . ولبتك تقرأ قصة "نون كيشوت" للكاتب الإسباني "سرفنتس" أو قصة "ترتاران دي ترسكون" للكاتب الفرنسي "الفونس دوبيه" لتعلم أن هذين للكاتبين العظيمين لم يزيدا على أن شرحا قول المتنبى.^٢

للمفارقة معقودة على بيت "المتنبى"، وهذا نمط من أنماط المفارقة عند د. طه حسين، حيث يعقدها على بيت من الشعر.

^١ حفة للشوك ص ٦٥.

^٢ حفة للشوك ص ٦٥.

المفارقة في أن يطلب الجبان القتال حيث يتوقع منه أن يتوارى ويتعد عنه، وليكتمل للمفارقة جمالها يكمل الشاعر قوله بأن هذا الجبان يريد القتال، ولكن حينما يكون الميدان خاليًا، أي هو قتال زائف يخدع نفسه به، لأنه لا يحارب عدوًا، بل يحارب الهواء، ولعل أمثاله كثيرون في كل ميادين الحياة، وقد ظهر التصور للمعنى المجرد وازداد جلاء بشرح طه حسين له. ولعل هنا أتوه بالتقاء الفكر الإنساني على حقيقة واحدة، فهذا سرفنتس، والفونس دونيه لم يكن كلامهما إلا شرحًا لبيت المتنبي، أو كالشرح له.

وقد اهتم طه حسين أيضًا بإحداث "مفارقات التصور" في الموضوعات السياسية.

ومن هنا ما جاء تحت عنوان: "طموح" وقد ختمها بنص من القرآن الكريم. قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ: ما بال فلان يؤلب على الحكومة وهولها صديق.

قال الأستاذ للشيخ لتلميذه الفتي: من مكان الصديق وطمع في مكان الزميل. قال الطالب الفتي: وتراه يبلغ ما يريد؟ قال الأستاذ للشيخ لتلميذه الفتي: ولم لا؟ إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.^١ للمفارقة في أنه يؤلب عليها وهو لها صديق، وحرى به أن يساندها ويؤيدها. ولكن حين تضاربت المصالح اختلفت الموازين وانعدمت القيم لأنها غير أصيلة. وهو ينتهي شيئًا ليس من حقه، فمثله مثل سارق، والسخرية في المفارقة تصل إلى ذروتها بقوله: "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل"^٢ أي أن هذه القصة قديمة مكررة فعلها قبله من هم على شاكلته، ومن الملاحظ أنه قد وظف النص القرآني لإبراز المفارقة على نحو غير مباشر.

ومنها: "توحيد"

^١ السابق ص ١٢٥.
^٢ سورة يوسف الآية ص ٧٧.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ليس مما يملأ القلوب غبطة، والنفوس
رضاً أن نرى مصر تعمل على توحيد كلمة العرب؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: بلى، وأدعى من ذلك إلى الغبطة والرضا أن
توحد مصر كلمة أبنائها.^١

المفارقة فيمن يعمدون إلى توحيد غيرهم وهم عاجزون عن توحيد أنفسهم،
وهو أولى بهم.

يشيع جو من التهكم الواضح من هذا الموقف يدفع القارئ إلى ابتسامة خفيفة
تدرك التهكم الذي يلوح من المفارقة وفي هذا النمط من أنماط المفارقة يظهر
رأي صانع المفارقة للحقيقي بعد ذكره للرأي الأول الظاهري. فهو لا يترك
للقارئ فرصة استنباط ما يمكن أن تحمله المفارقة من معنى كامن ، بل يزيل له
اللتاع ويتركه ليسخر ويتهكم. وتظهر المقابلة بين سلوكي الضحية "مصر" بشكل
غير مباشر . فالسلوك الأول يظهر في رغبتها في توحيد شمل العرب ، والسلوك
الأخر غير المباشر هو المستتج وهو عجزها عن توحيد ذاتها وأبنائها.
ومنها ما وضع له عنوان "رعية":

وقد استثمر فيها حكاية من التراث ، وعززها بأية قرآنية :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: قرأت في بعض الكتب أن المنصور قال
لبعض نواده: صدق الذي قال "أجع كلبك يتبعك، وسمنه يأكلك. فقال له أبو
العباس الطوسي: أما تخشى يا أمير المؤمنين إن أجمته أن يلوح له غيرك
برغيف فيتبعه ويدعك"

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: عفا الله عن المنصور وجليسه! فقد شبيها
الناس بالكلاب، والله عز وجل يقول*: "ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر
والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً".^١

تتمثل المفارقة في تشبيه المنصور الرعية بالكلاب ، وقد كرمهم الله وفضلهم على سائر مخلوقاته. هما تصوران متضادان، تصور المنصور والذي يتضاد مع التصور

الثاني وهو حقيقة الإنسان كما كرمه الله. وتظهر مفارقة التصور بوضوح من خلال المقابلة بين هذين السلوكين أو التصورين.

وقد أورد طه حسين للعديد من مفارقات التصور في الموضوعات الموصولة بالقيم الاجتماعية، ومنها ما ورد تحت عنوان: "عتوق" وفيها يستخدم د. طه حسين معرفته وثقافته التاريخية ليستقي منها مفارقاته.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألا تحدثني عن سمنار هذا الذي كثر الحديث عنه في هذه الأيام: من هو؟ وما شأنه؟ وفيم يكثر الناس عنه الحديث؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: "زعموا يا بني أنه رجل رومي، بنى للنعمان بن المنذر قصرًا أو قصرين لا لدرى، فلما أتم عمله على أحسن وجه وأكمله، رضي للنعمان عنه، ولكنه أشفق أن يبني لغيره من الملوك مثل ما بنى له، فأمر به فألقي من أعلى القصر فاندفت عنقه فمات. والناس يضربونه مثلاً لمن يقدم إلى الناس خيرًا وإحسانًا فيجزونه بالشر والمساءة. ولكن في الدنيا أفر إذا كثيرين يمكن أن يسمى كل واحد منهم سمنار، ولكنه يلقى من حائق فلا تتدق عنقه، تستطيع أن تسميه سمنار الخالد، لأنه لا يبني لأصحاب السطوة والبأس، وإنما يبني للشعوب، ولأنه لا يبني للشعوب دورًا ولا قصورًا ولا شيئًا من هذه الآثار التي يبلغها البلى ويدركها الفناء، وإنما يبني لها فناً وأدباً وفلسفة وعلماً وإصلاحًا. ألا تذكر مصارع النابغين من الأبياء والعلماء والفلاسفة ألا ترى أنك لا تزال تستمتع بأثارهم؟"

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وسيستمع الناس بعدنا بأثارهم حتى يرث

الله الأرض ومن عليها^١.

في هذا النص ألمخُ مفارقة كبرى ومفارقات صغرى متعددة فالمفارقة الكبرى معقودة بين ستمارين إن جاز التعبير، كلاهما بنى مجدًا، ولكنهما لم ينالا مصيرًا واحدًا، لاختلاف نوع المجد، وفي النهاية تتحسم المفارقة لتعزز مجد ستمار الثاني الذي بنى للشعوب فنا وعلمًا وأدبًا، فلم يقدر عليه أحد لأن عطاءه لا يمكن حجبته عن الناس.

وفي ثنايا المفارقة الكبرى مفارقات عديدة جزئية، مثل أن يلقي من حالق ولا تتدق عنقه، وأن يُساق إليه الشر فلا يؤذيه، ويكاد له الكيد فلا يبلغ منه شيئًا، والمتوقع أن يؤذى ويكاد له ثم مفارقة معقودة في قوله: ستمار الخالد وأنى يخلد إنسان؟ بل تخذ آثاره إن استحقت الخلود، وهنا يريد صاحب المفارقة أن يُعلي من شأن الفنون والآداب والعلوم.

ومنها ما ورد بعنوان "تصوير": يقدم فيها طه حسين ثقافة وتراثًا لاتينيًا ممثلًا فيما جاء به الشاعر جوفينيال:

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لا أعرف شيئًا أبرع، ولا أبلغ، ولا أدق في تصوير بؤس البائسين، وثرأء المثرين، والتفاوت المخزي بين الطبقات من هجاء "جوفينيال".

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ألا أدلك على شيء هو أبرع، وأبلغ، وأدق تصويرًا لذلك من هجاء "جوفينيال"؟ انظر إلى حياة المصريين.^٢

المفارقة في أن واقع حياة المصريين أشد قسوة وبؤسًا من خيال الشاعر الذي يعمد إلى الإغراق في المبالغة لتصوير ما هو فوق الحقيقة والخيال من نتهي الفقر ونتهي الغنى في أن واحد. وهو ما يدعو إلى السخرية المرة.

^١ جنة الشوك ص ٤٠، ٣٩.

^٢ جنة الشوك ص ٥٦.

ثانياً : المفارقة اللفظية :

في الأخلاق والسلوك

ومنها ما ورد تحت عنوان "تجن" اعتمد فيها طه حسين على التراث بنكره مقولة للإمام الشافعي، ومقولة في العقيدة الإسلامية تقول "الضرورات تبيح المحظورات" وإن كان قد وظفها بشكل مختلف قال: "تلقاهم من المدارس الثانوية لا يحسنون شيئاً، فتعهدهم حتى أحسنوا أشياء كثيرة، وحتى ظفروا بما يظفر به الشباب الممتازون في الحياة الجامعية من درجات والقباب." ثم تعهدهم حتى اطمأنوا في الحياة إلى ما يحبون.

وكانوا لهذا كله ذاكرين شاكرين، وكانوا من هذا كله متزيدين، حتى لم يجدوا سبيلاً للمزيد. ثم أزور عنه السلطان فازوروا عنه، وقالوا: جفوتنا حين كان يحسن أن تصلنا.

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : ما أعرف أنهم لقوا منك جفاءً أو إعراضاً.
قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتي: "ليس المهم أن تعرف أو لا تعرف، وإنما المهم أن تعلم أن كلمات التجني والتعلل والتكلف لم توضع في اللغة عبثاً، وإنما وُضعت لتدل على معانٍ والمعاني لا تقوم بأنفسها ، وإنما تقوم بأنفس الناس"

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ: اليس قد علمنا المعلمون في الكتاتيب أن الإمام الشافعي كان يقول: من علمني حرفاً صرت له عبداً؟¹

قال الأستاذ للشيخ لتلميذه الفتي: "بلى ولكن الحياة قد علمتنا أن الضرورات تبيح المحظورات. ومن المحظورات أن تجفو من جفاء السلطان ، فقد تصدك صلته عن بعض ما تحب، وتصرف عنك بعض ما تتمنى"¹

المفارقة تعتقد في جوابه عن السؤال في الفقرة الأخيرة من النص: "بلى ولكن الحياة قد علمتنا أن الضرورات تبين المحظورات"¹

¹ جنة الشوك ص ٤٢، ٤٣.

فمقولة صانع المفارقة هذه لا يقصد بها ما يدل عليه ظاهر لفظها، بل العكس. وهذا من صميم المفارقة اللفظية.

وصانع المفارقة يقدم معنى لا يُختلف حوله لأنه قاعدة قهوية، أعنى قوله "الضرورات تبيح المحظورات" ولكن أية ضرورات؟ وأية محظورات؟ هل جفاء من جفاء السلطان يُعد في المحظورات التي تبيحها الضرورات؟ وتشد وطأة المفارقة بإدعاء "الضحية" ما ليس صحيحًا في الحقيقة حين تقول: "وقالوا جنوتنا حين كان يحسن أن تصلنا"، وكذلك بما أورده التلميذ من قول الإمام الشافعي، ليعسق الهوة بين ما هم عليه، وما كان ينبغي أن يكونوا عليه.

ومنها المفارقة التي وردت تحت عنوان مثل :

ويقدم فيها طه حسين مثلًا عربيًا في بيت شعر فيقول :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : فسر لي هذا المثل العربي القديم :

اليس لكل حالة ثوبها إما نعيمها وإما بوسها

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : تريد تفسير الجد أم تفسير الهزل ؟

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : أريد تفسير الجد.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى : فكن حرًا كريمًا إن أذنت لك نظم الحكم أن

تكون حرًا كريمًا، وكن عبدًا ذليلًا إن اقتضتكم نظم الحياة أن تكون ذليلًا، واتخذ

لنفسك ثوبين: ثوب النعيم تلبسه حين يؤذن في الناس بالحرية، وثوب اليأس

تلبسه حين يؤذن في الناس بالرق. وأي الثوبين ليست، فكن عنه راضيًا وبه

محبورًا.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: فإن أردت تفسير الهزل؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: فكن رجلًا حرًا كريمًا لا تبطره النعمة، ولا

تغض منه النعمة. وإنك لتعلم أن الذين يحسنون الهزل قليلون.^١
قامت هذه المفارقة على ذكر ما لا يقصده صانعها من ظاهر لفظه وهذا من لب
المفارقة اللفظية، وقد بدل في موقعي الكلام، فما جاء به على أنه الجد هو الهزل
بعينهم كما براه ويقر في ضميمته، وقد تركه لفطنة القارئ واستباطه له من
خلال السياق ومعرفته بمنطق الأضواء والحياة - وما جاء به على أنه الهزل هو
الجد بلا شك.

والتهكم والسخرية يظهران بوضوح للقارئ، وتُظهر المفارقة هذا الوضع
المتردّي لمولود كثير من الناس إما رغبة وإما رهبة وإما تملقا.
ومنها ما جاء تحت عنوان "رقي":

"ويقدم فيها طه حسين قولاً ماثوراً" يجعله مدار الحديث

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لم تكن نلتن في نضرة الصبا أن من طلب
للعلا سهر الليالي؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ذلك حين تكون العلا غالية بعيدة المنال،
فأما حين ترخص فإنها تتال بأيسر من سهر الليالي.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وما ذاك؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إسداء الثناء إلى غير الأكفاء، وإهداء الهجاء
إلى ذوي الغناء، وقذف المحصنات والخوض في الأعراض بغير الحق، وجفوة
الصدق، وخيانة الخليل.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: وترى ذلك ثمنا يسيرا؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أيسر من الرمل على ساحل البحر، ومن
الماء على شاطئ النيل.^٢

في هذه المفارقة يظهر بوضوح أن صانع المفارقة بصوق معنى ما في حين

^١ مجلة الشوك ص ٩٥، ٩٦.

^٢ مجلة الشوك ص ٥٨، ٥٩.

يقصد منه معنى آخر، يخالف المعنى الظاهري السطحي، فهو يهزأ أو يسخر من هؤلاء الذين يعتبرون المعالي تنال بأيسر سبيل إذا اتخذوا لها أحقر الوسائل بإسداء الشكر إلى من لا يستحقه. وبهجاء من لا يجب هجاؤهم لأنهم من الأخيار، ويقذف المحصنات زوراً، ويجفوة الصديق، وبخيانة الخليل، ثم يأتي في النهاية بثلاثة الأتافي إذ يذكر سهولة هذا الأمر بالنسبة لهم، فهو أيسر من الرمل على ساحل البحر، وأيسر من الماء على شاطئ النيل، وفي هذا "إلماع" إلى مدى تقبلي الفساد وخراب الذمم، وانعدام القيم والأخلاق حين يكون هذا سهلاً وكثيراً إلى هذا الحد.

ومنها: "نزاهة":

"وقد جعل مدار الحديث فيها صورة شعرية للشاعر اللاتيني جوفينيال"
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما أجمل هذه الصورة التي أراها عند الشاعر اللاتيني "جوفينيال" حيث يقول:

"ما أكثر ما تمدح النزاهة، ولكنها على ذلك ترتعد من البرد"

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: وقد مدحت النزاهة أثناء القرون منذ شاعرك اللاتيني، ولم تمدح قط في عصر من العصور كما تمدح في هذه الأيام، ولكنها مع ذلك مقرورة ترتعد من البرد^١.

حمل طه حسين كلامه الاستعارة في قوله "مقرورة ترتعد فدفع بالمعنى من اتجاه إلى اتجاه آخر معاكس تماماً.

المفارقة في كون النزاهة ممدوحة، لكنها لا تجد لها حامياً يمنحها الدفاء. وجمال المفارقة جاء من التصوير البياني باستخدام الاستعارة المكنية.

وقد أتى طه حسين بالمفارقة اللفظية في الموضوعات التي تتصل بالسياسة،

ومنها ما وضع له العنوان: "رقق"

^١ لجنة للشوك ص ٦٩.

وكان يشير فيها إلى شيء من معرفته بأبي العلاء المعري، وما تعلمه من اتجاهه ورفقه بالحيوان، وله في هذا فلسفة.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم أعلم أن الحكومة قد أصبحت أراف بالحيوان من أبي العلاء؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ماذا تقول؟ أتراها حرّمت نبحه وأكله وحفظت اللبن على البقر والشاء، والبيض على الدجاج، والعسل على النحل؟! قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لا! ولكنها أذنت فأقيمت ليلة موسيقية ساهرة لمعونة الذين يرفقون بالحيوان.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: لو خير الحيوان لاختار الحياة والعافية على الموسيقى والرقص.^١

المفارقة تبدو في اختيار الحكومة حفلاً موسيقيًا من أجل الرفق بالحيوان، وقد كان الأولى بها أن تحفظ عليه الحياة. أقيمت حفلة لمن يرفقون بالحيوان لا بمن يستحق الرفق، "أي الحيوان" لأنه لا يعود على الحيوان من هذا الاحتفال نفع ينكر، فالحكومة تهدر أموال الشعب فيما لا طائل من ورائه.

ويلاحظ بالطبع في هذه المفارقة أن صانعها يؤكد في ظاهر نصه ما يختلف تمامًا عما يحمله في عقله من معنى، وفي العبارة الأخيرة يكشف طه حسين القناع عن المفارقة، فيظهر رفضه لظاهر الكلام، ولعل في كلامه ما يلفت إلى أن الرفق بالإنسان أوجب.

ومن هذه المفارقات أيضًا ما ورد تحت عنوان: "تهضة": يقول فيها: قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ما تقول في شعب يجري أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة، وعلى ضعف الشيوخ وحمقهم من جهة أخرى؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أقول إنه شعب ناهض يسعى إلى المجد
بخطو سريع!^١

تظهر المفارقة على نحو غير مباشر، يفهمها القارئ مستعينًا بالسياق وبفهمه
لروح الحياة ومنطقها. يقصد د. طه حسين: إنه شعب متخلف يسعى إلى الهلاك
بأقصى سرعة. وقد أكد صانع المفارقة في ظاهر نصه عكس ما يرمى إليه من
قصد ومضمون.

ومما جاء به من مفارقات تمس القيم الاجتماعية :

ما ورد تحت عنوان : "أقول" :

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : ألم تر إلى ذلك النجم لم يكد بشرق حتى
أفل.

قال الأستاذ للشيخ لتلميذه الفتى : كان يستمد النور من غيره ، فلما للتوى
عنه مصدر النور عاد إلى إظلامه القديم.^٢

المفارقة في سرعة أفول ذلك النجم، وهي مبنية على عنصر بلاغي يتمثل
في الاستعارة للتصريحية، فتصد صاحب المفارقة ليس ظاهرًا على المستوى
السطحي للكلام، ولعله يقصد شخصًا ما كان موجودًا في المجتمع آنذاك، وكان
متسلقًا ومحتفيًا بأخر المعنى يستمد منه ما يشيعه عن نفسه من بطولات، فلما
ابتعد عنه ظهرت حقيقته البانسة، وعاد سيرته الأولى.

ثالثًا : مفارقة الإلماع :

وقد ظهرت في حديثه عن السلوك والأخلاق فيما جعل عنوانه : "نزاهة" :
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ : لقد ضرب فلان أبرع المثل في الذود عن
نزاهة الحكم والتعنف عن فتاته ومنافعه العاجلة ، والحرص على الاستقامة في
القول والعمل ، وعلى نقاء اليد والقلب والضمير.

^١ السابق ص ٨١.

^٢ السابق ص ١٢٨.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى وعلى ثغره ابتسامه مرة حائرة لا تريد أن تستقر: نعم ، بعد أن ملأ يديه بالمغانم والأسلاب^١.
هذه العبارة الأخيرة هي الومضة الخاطفة التي تمثلت فيها المفارقة. وصوت الأستاذ يظهرها ساخرًا وقد أزال الغشاوة التي حجبت للحقيقة. مدعي الفضيلة والنزاهة يصطفعهما بعد أن ملأ يديه من الأسلاب!! إذن فصوت الأستاذ بهذه العبارة ينفي جميع الصفات والأفعال التي ذكرت من قبل ، ويظهر الشخصية وسلوكها الحقيقي.

وعن القيم الاجتماعية يتحدث طه حسين بما جاء به تحت عنوان "حرية":
قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم تر إلى فلان ولد حرًا وشب حرًا وشاخ حرًا، فلما دنا من الهرم لثر للرق فيما بقي من الأيام على الحرية التي صحبها في أكثر العمر؟!^٢

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: أضعفته السن فلم يستطع أن يحتمل الشيخوخة والحرية معًا، وأنت تعلم أن الحرية تحمل الأحرار أعباء ثقلاً^٣.
المفارقة تبدو بوضوح في "لم يستطع أن يحتمل الشيخوخة والحرية معًا"، بعد أن نصح وكان المتوقع منه أن يظل متمسكا بإيمانه بالحرية وتبعاتها إلى النهاية، تبدل في شيخوخته. وهنا الإلماع الساخر إلى المفارقة إذ لا تعارض في الحقيقة بين الحرية والشيخوخة، فالشيوخ قانرون على تحمل الحرية مثلما يحتملها الشباب، لكن صانع المفارقة أراد أن يسوق تعليلاً ساخرًا للتدخل حال الرجل، فعلى ذلك بعدم قدرته على احتمال الشيخوخة والحرية معًا.
وفيما يتصل بالحديث عن الشؤون السياسية كتب يقول تحت مسمى "معارضة":

^١ جنة الشوك ص ١١٤.

^٢ السابق ص ٢٢.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألم تر إلى فلان يطالب بالجلاء السريع -
متى وضعت الحرب أوزارها- إلى أوروبا.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: إلى أن يلي الحكم أو يشارك فيه.^١
فلان هذا غير مخلص في طلبه للجلاء، أظهر هذا قول صانع المفارقة: "إلى
أن يلي الحكم أو يشارك فيه" حينئذٍ ستتغير اتجاهاته، وأراؤه. فهو ليس منتمياً إلا
إلى مصلحته الشخصية، وهو مستعد لتغيير مواقفه إذا لاح له أي نفع.

رابعاً: المفارقة البنائية:

وقد تناول د. طه حسين القيم السلوكية والأخلاقية والأوضاع الاجتماعية
فيما كتبه من مفارقة حملت عنوان "ضمانر":

وقد اعتمد فيها على أحد النصوص القرآنية التي أسهمت إسهاماً فعالاً في
تجسيد المفارقة وإظهار مغزاها.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: ألا تحدثني عن هذه الضمانر التي تفعل ما
تشاء، ثم تستتر وراء أفعالها، وجوباً مرة، وجوازاً مرة أخرى، فهي دائية نائية،
وبادية خافية، وهي ملحوظة غير ملفوظة، ومعقولة غير مقولة، وهي على ذلك
تكلف الأساتذة والتلاميذ همًا ثقيلاً، وعناء طويلاً.

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ما أنت وهذه الضمانر البرينة النقية إنما هي
بنات الوهم، قد فرضها العلماء رياضاً لعقول الطلاب، على التحليل والإعراب،
وهي لا تؤذي أحداً من قريب أو بعيد، فإذا علمت علمها، وذلك يسير، فدعها
وشأنها، وتحدث عن ضمانر أخرى أشد في حياة الناس خطراً، وأبعد في
أعمالهم أثراً، تستخفي في أعماق النفوس عابسة تشيع الابتسام المرعب، ومظلمة
تتشر الضوء المخيف.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: لقد عدت إلى ما دليت عليه من الإنغاز،
فوضح لي بعض ما تقول!

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: ما تقول في ضمائر الأطباء حين يعونون
المرضى، وفي ضمائر المرعوسين حين يتلقون أمر الرؤساء، وفي ضمائر
الطلاب حين يسمعون دروس الأساتذة، وفي ضمائر بعض الأصدقاء حين
يبتمنون للأصدقاء؟

وكنت حاضر هذا الحديث، فتلوت قول الله عز وجل: "وتحسبهم أيقاظًا وهم
رقاد، ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلهم يأبسط ذراعيه بالوصيد، لئلا
يطلع عليهم لوليت منهم فرارًا ولملئت منهم رُعبًا"^١

يظهر في النص طالب يتحدث عما يستشعره من مشكلة في الضمائر
النحوية فيلفته صانع المفارقة إلى مشكلة أوسع لضمائر أخرى.

ضمائر بعض الأطباء، والمرعوسين، والطلاب، وبعض الأصدقاء التي
تطوي على تناقض يشع تظهر به خلاف ما تبطن، وقد جسد ذلك طه حسين
بقوله "مظلمة تنشر الضوء المخيف"! وهي تفرع من يطلع عليها كما يفرع من
يطلع على أهل الكهف.

ما اراده طه حسين بالآية أنه ربط بين الاطلاع على أهل الكهف الذي
يصيب الإنسان بالرعب، والاطلاع على هذه الضمائر الخربة الذي يصيبه
بالرعب أيضًا، لكنه اكتفى بالإشارة بالآية دون أن يفصح عما يريد تاركًا هذا
لفطنة القارئ.

ومن المفارقات التي استثمر فيها التاريخ الإسلامي ما أورده تحت عنوان
"معارضة":

* سورة الكهف آية ١٨.
١ جنة للشوك ص ٢٥، ٢٦.

قال الطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إني أقرأ في عيون الأخبار لابن قتيبة أن عمرو بن عبيد مر بجماعة عكوف، فقال: ما هذا؟ قالوا: سارق يقطع! فقال: لا إله إلا الله، سارق السر يقطعه سارق العلانية فهل تتبنتي إلام أراد؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: كان عمرو بن عبيد زعيماً من زعماء المعتزلة، وكان زاهداً في الدنيا مخلصاً للدين، وكان شجاعاً لا يخشى في الحق لومة لائم، وما أراد بقوله هذا إلا أن يصف عامل البصرة، بأنه كان سارقاً لأموال المسلمين، يسرقها جهرة لأنه لا يخاف أحدًا، منافقاً في إمضاء حكم الله، يعاقب على إثم يسير يستخفي به صاحبه، وهو يقارف أعظم الأثام وأضخمها. فإن اجتمع لك زهد عمرو بن عبيد في الدنيا وحرصه على الدين وشجاعته على مواجهة الحكام بما لا يحبون فانهض بتبعات السياسة، وإن لم تجتمع لك هذه الخصال فالتمس لنشاطك سبيلاً أخرى.^١

تظهر المفارقة في أن هناك سارقين أحدهما متخف، والآخر متبجح يسرق جهرة، وتصل المفارقة إلى ذروتها حين نرى أن سارق العلن هذا، هو الذي يقيم حد السرقة على سارق السر، وكان الأولى أن يقام الحد عليه، لكنه محتم بالسلطة!

وقد أورد طه حسين "معارضة" لخرى استخدم فيها شيئاً من ثقافته العربية منقولاً أيضاً من كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة.

قال للطالب الفتى لأستاذه الشيخ: إني أقرأ في كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة أن طارقاً صاحب شرطة خالد القسري مر بابن شبرمة، وطارق في موكبه، فقال ابن شبرمة:

أراها وإن كانت تُحَبُّ كأنها سحابة صيف عن قريب تشتتُ

اللهم لي ديني ولهم دنياهم. فاستعمل ابن شبرمة بعد ذلك على القضاء فقال

^١ جنة الشوك ص ٣٦.

له ابنه: أتذكر يوم مريك طارق في موكبه وقلت ما قلت؟ فقال: يا بني، إنهم يجدون مثل ألبك، ولا يجد مثلهم أبوك. إن أباك أكل من حلوانهم وحط في أهوائهم. فهل تتبنتني بمغزى هذا الحديث؟

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفتى: معزاه يسير كل اليسر، فقد كان ابن شبرمة كغيره من أخيار الناس الذين لا تطيب أنفسهم عن متاع الدنيا، فعارض السلطان لأنه كان طامعاً في بعض ما عنده. فلما ولى القضاء رضي على السلطان وسخط على نفسه: رضي على السلطان لأنه ولاءه، وسخط على نفسه لأنه لم يستطع أن يصبر على الحرمان.

ورحم الله ابن شبرمة! فقد كان له من الشجاعة حظ حسن حين اعترف لابنه بأنه أكل من حلوانهم وحط في أهوائهم، لأنه إن لم يستجب لهم حين دعوه وجدوا غيره ممن يلي القضاء مكانه، لما هو فلن يجد غير السلطان قوة توليه القضاء.

فوازن يا بني بين شجاعة عمرو بن عبيد الذي ألبس نفسه من السلطان فانتهى بمعارضته إلى غايتها وشجاعة ابن شبرمة الذي أطمع نفسه فيما عند السلطان، فانتهى بشجاعته إلى أن تمثل بيتاً من الشعر.^١

المفارقة بين رضا ابن شبرمة عن نفسه حينما سخط السلطان، وسخطه عليها حين رضي عن السلطان، لأن مخالفة السلطان كانت مبنية على اقتناع بموقفه المبني على الاعتصام بالدين والزهد في الدنيا، وهذا ما يوضحه بيت الشعر الذي تمثل به، ثم ظهرت المفارقة في تخليه عن هذا الموقف إلى تقيض ما كان يتمسك به حين أتبع له شئ من متاع الدنيا الذي كانت نفسه تصبر إليه في الحقيقة.

^١ جنة الشوك، ص ٣٨٠، ٣٧٧.

وثمة مفارقة أخرى تتمثل في التضاد الحاد بين شخصيتي ابن شيرمة، ومدى شجاعته، وشخصية عمرو بن عبيد وشجاعته، قد أنتجت كل منهما موقفين متضادين تابعين من إطارين اجتماعيين ونفسيين مختلفين.

خامساً: مفارقة الإيهام:

لم أجد، من هذا النوع من أنواع المفارقة، في جنة الشوك إلا هذه التي وضع لها طه حسين عنواناً هو: "مجون"، واعتمد فيها على شطر بيت من الشعر، يقول فيها:

ما زالت لمرأته تظهر له الغيرة حتى أغرته بالإثم فتورط فيه، وما زال هو يلوم ابنه على العيب حتى دفعه إليه، وما زال ابنه ينهي صاحبه عن عشرة خليلية لسوء حتى اتخذها له زوجاً. أليس من الخير أن يتدبر الناس مجون أبي نواس حين قال:

"دع عنك لومي فإن اللوم إغراء"

فرب مجون أدنى إلى الموعظة من الحكمة للبالغة^١.

في هذا النص يظهر صانع المفارقة إيهام "الضحية" لنفسها بأن اللوم يمنع ارتكاب المنكر من الأفعال، ثم الاختلاف الحادث بين هذا الإيهام، وبين واقع الأمر وحقيقته.

والمفارقة في أن المرأة توهم نفسها أن غيرتها الزائدة على زوجها تمنعه عن غيرها، فإذا بها تدفعه إليها، وظن الأب أن مبالغته في لوم ابنه— وهذا صحيح من وجهة نظره— تحميه من العيب، فإذا هو يقع فيه، ومثله نهى الابن صديقه عن خليلية السوء فإذا به يتخذها زوجاً. ثم تبلغ المفارقة ذروتها بأن الحكمة تؤخذ عن أصحاب المجون كأبي نواس الذي لخص هذه التجربة الإنسانية بقوله: "إني اللوم إغراء"، فرب حكمة تأخذ من لغواء ماجنين.

سادسًا : المفارقة الدرامية :

ولم أجد مثالا في مفارقات طه حسين غير واحدة يتحدث فيها عن السلوك الاجتماعي ، وقد أوردتها تحت عنوان "حلة" :

هم أمير الموصل أن يهدي إلى لحد ندمانه خلعة نفيسة، ثم غضب عليه لبعض الأمر قبل أن تبلغه الهدية. وكان النديم طويلًا في السماء عريضًا في الفضاء. وقد أراد الأمير أن يفيضة ن فأهدى خلعته إلى نديم آخر كان قصيرًا لا يكاد يرتفع عن الأرض، وضيقًا لا يكاد يشغل من الفضاء إلا حيزًا ضئيلًا. وتلقى النديم هدية الأمير جذلان راضيًا. فلما دخل فيها ضاع بين ثنابها، لأنها لم تقصّل على قدمه. فاما الأمير وحاشيته فضحكوا وأغرّقوا في الضحك. ولما النديم فلم يشك في أن الخلعة قد خلقت له . وأما الناس فقد جعلوا كلما رأوه يشيرون إليه ، ويقول بعضهم لبعض : انظروا إليه ! إنه يرقل في حلة فلان.^١

تتمثل المفارقة في أن تعطي خلعة النديم الطويل إلى القصير. والمفارقة أن يسعد بها النديم الضئيل ولا يدرك بشاعة منظره، وهو مرتد ثوبًا لا يلائمه. أو لعله خدع نفسه بهذا لأن الحلة هدية من أمير.

والقارئ يدرك المفارقة منذ الوهلة الأولى، ويسود شيء من التوتر في سرد المفارقة بسبب حالة من الترقب والتشوق لرد الفعل المتوقع من النديمين، من حُرْم حلتهم، ومن غاص فيما لا يناسبه. والنتيجة قدر من السخرية والتهكم، من الأمير وحاشيته والقراء جميعًا.

وبعد : فلعلني أشير إلى عدة نقاط لاحظتها ، وأنا بصدد تحليلي لمفارقات د. طه حسين في "جنة الشوك" :

١ - حاولت أن ألتزم في كل مفارقة نمطًا مختلفًا عن غيره من حيث استعمال طه حسين للشعر، أو لقصص التراث، أو أي للقرآن، أو الثقافة الغربية،

^١ جنة للشوك ص ٢٩.

وكان هذا معياراً لاختيار المفارقات بحيث يمثل كل منها نمطاً قائماً يقني عن نظائره.

٢ - معظم المفارقات اتعمدت على نوعين من أنواع المفارقة، أولهما مفارقة المفهوم أو التصور، وثانيهما المفارقة اللفظية.

٣ - دارت موضوعات المفارقة حول القيم والأخلاق والسلوك، وكذلك مسّت بعض المعاني السياسية الجوانب، وقضايا المجتمع المصري وبعض مفاهيمه وقيمه وأعرافه، وفي هذا ما يشير إلى لدرجة طه حسين على النقد الاجتماعي اللاذع.

٤ - ظهرت ثقافة طه حسين بوضوح جلي حيث استشهد في معظم مفارقاته بحكايات من التراث العربي والألب، واستحضر نماذج دالة من الشعر العربي، بل نراه قد عتد في بعض الأحيان المفارقة على بيت من الشعر. وظهرت كذلك ثقافته الدينية، كما ظهرت معرفته بمعاني القرآن، وحفظه لآياته، فقد تمثلها كثيراً، كما تمثل أيضاً الثقافتين اللاتينية والفرنسية.

٥ - جاءت مفارقات طه حسين نمطاً مختلفاً بعض الشيء عن المفارقة عند غيره، إذ رأيناه يعتمد كثيراً إلى إزالة قناع المفارقة، ليساعد القارئ على إدراك مقصوده، ولعل مما دفعه إلى ذلك أنه كان يقدم هذه "الإبيجرامات" للنشر في الصحف السيارة قبل أن تجمع في كتاب، وإن كانت لا تخلو من مواضع يورد الكلام فيها على ظاهر لفظه ويترك لفظنة القارئ الوصول إلى ما وراء اللفظ من معنى مقصود إليه يتم به المفارقة.

قائمة بأهم المراجع

- احمد خريس: المفارقة في مقامات بنيع الزمان الهمزالي - مجلة جذور سبتمبر ٢٠٠٢ ج ١٠ م ١٠٦.
- امل نصير: المفارقة في كافوريات المتنبي . قراءة في نصوص مختارة . ابحاث البرموك م ٢٤١٥ سنة ١٩٩٧.
- د. سعيد شوقي : بناء المفارقة في المسرحية الشعرية ط ١ ٢٠٠١ للقاهرة.
- د. سيزا قاسم : المفارقة في النص العربي المعاصر - مجلة فصول م ٢ ١٩٨٢.
- د. طه حسين : جلة الشوك دار المعارف ط ١٠٠.
- د. عز الدين إسماعيل: نعمة للأسي ٠٠ نعمة للحزن ط ١ يناير ٢٠٠٠ القاهرة.
- د. مجدي وهبة : معجم مصطلحات الأدب . لبنان ١٩٧٤.
- د. محمد شكري عباد: طه حسين والثقافة اليونانية مجلة الهلال فبراير ١٩٦٦.
- د. محمد العبد : للمفارقة القرآنية ، دراسة في بنية الدلالة ط ١ دار الفكر العربي ١٩٩٤.
- د. محمود علي مكي : عصور الأدب العربي ، مجلة فكر عدد ١٤ مارس ١٩٨٩.
- د. محمود فهمي حجازي : طه حسين : فكره اللغوي مجلة فكر عدد ١٤ مارس ١٩٨٩.
- د. مصطفى السحني: البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي الحديث منشأة المعارف - الإسكندرية.
- د. ناصر شبانة: المفارقة في الشعر العربي الحديث ط ١ ٢٠٠٢ بيروت.
- د. نبيلة إبراهيم : المفارقة : مجلة فصول م ٧ عدد ٤٠٣ أبريل - سبتمبر ١٩٨٧.

- Academic American Encyclopedia
- Cuddon, J.A: Dictionary of Literary Terms and Literary theory. Penguin Books. England ١٩٩١.
- Gray, M.: A Dictionary of Literary Terms. Longman ١٩٩٢.
- R.wellek: A history of Modern. Criticism v. ٢. p. ١٢-٢٤.